

كتب بالعربية

فلسطينية تملك حيزاً من الصلاحيات لوضع برامج في أكثر من مجال: التوجه إلى الجمع بين مهمات التحرر الوطني، ومهمات التحرر الاقتصادي والاجتماعي (ص ٢٤ - ٢٥). وفي هذا السياق يستخدم المؤلف عبارة "الحقل السياسي" لتشمل البنين التحتي، أي القوى والمؤسسات السياسية، والبنين الفوقي، أي ما يتصل بالفكر والثقافة من أعراف ومواثيق وقيم (ص ٣٢٢)، ويشير إلى أن على اليسار التدقيق في موقع السلطة الفلسطينية في استراتيجية تمكّن الشعب الفلسطيني بكل مكوناته (في الشتات، وال الضفة والقطاع، وداخل الخط الأخضر) من مواجهة إسرائيل كدولة احتلال واستيطان واستعمار (ص ٢٠).

غير أن هذه المسألة ليست هي القضية المحورية في الكتاب، فالكتاب هو أداة المؤلف لتوفير الفرصة لذوي الشأن أنفسهم (اليسار) كي يتأملوا ويعبروا عن رؤاهم في أسباب تراجع اليسار، وفي سبل نهوضه. وقد انعكس هذا التوجه في منهجية البحث، إذ أُجريت لقاءات مع أكثر من مئة شخصية من كوادر وقياديين ينتمون إلى منظمات اليسار، أو أفراد يعرفون عن أنفسهم كيساريين، وطلب إليهم الإجابة عن

اليسار الفلسطيني إلى أين؟

جميل هلال

بالاشتراك مع طلال عوكل وزياد عثمان.

ألمانيا: مؤسسة روزا لوكسمبورغ، ٢٠٠٩: تنفيذ: مؤسسة ناديا للطباعة والنشر، رام الله، ٢٠٠٩. ٣٥٣ صفحة.

المؤلف في هذا الكتاب أن يرى الوضع الفلسطيني دخل في مأزق حاد، ويلقي على اليسار بالذات، دور البوصلة المرشدة للخروج منه (ص ١٣). ولعل هذه العبارة تلخص الهدف من الكتاب، ولا سيما أن المؤلف لم يضع مقدمة للكتاب تبين هدفه، بل بدأ مباشرة بالفصل الأول الذي عرض فيه لنشأة اليسار الفلسطيني ودوره الناشط في الحركة الوطنية، كشريك في صنع القرار في منظمة التحرير الفلسطينية، وفي صلب قيادة الانتفاضة الأولى (ص ١٤). وتوقف المؤلف عند ظاهرة تراجع اليسار، ورأى، استناداً إلى استطلاعات الرأي العام في الضفة والقطاع، حدوث تراجع شبه منتظم منذ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٣، حين كانت نسبة التأييد لليسار تفوق نسبة مؤيدي "حماس" (٧١٪) في مقابل (٦١٪)، حتى الانتفاضة الثانية حين استقر تأييد اليسار

على ما هو عليه في سنة ٢٠٠٩، أي ما بين ٥٪ و ٧,٥٪ من عدد المستطلعين (ص ١٥). والمقصود باليسار هنا المنظمات الأربع التي تتبنى الماركسية وهي الجبهتان الشعبية والديمقراطية، وحزب الشعب، وحركة فدا (ص ١٥ و ٢٨). ومن المتطلبات الأولية لليسار الآن، امتلاكه رؤية جديدة تتناول هويته الفكرية عبر منظومة مفهومية جديدة تأخذ في الاعتبار: انهيار المنظومة الاشتراكية؛ البت في النظر إلى الماركسية، إن كمنهج لتحليل الواقع أو كعقيدة دوغمائية، وإذا ما كان اعتناقها شرطاً لمنتسبي اليسار، أم إن اليسار يمكن أن يكون تياراً سياسياً يضم ماركسيين وغير ماركسيين؛ امتلاك برنامج نضالي جديد يواجه حقائق الحقل السياسي الفلسطيني، ويواجه الحصار والاحتلال الاستيطاني، أخذاً في الاعتبار وجود سلطة

ثلاثة أسئلة تحيط بالموضوع بشكل جامع. كما انعكس في ضخامة حجم الاقتباسات الواردة على ألسنتهم، وهو ما ينسجم تماماً مع الهدف من البحث في أن يكون منبراً لصوت اليسار في قضية ذات اهتمام مصيري (ص ٢٩). وقد اتفقت الآراء على أن اليسار نشأ في إطار صراع وطني تحرري، وجذوره قومية، ذلك بأن ثلاثاً من المنظمات الأربع تفرعت من حركة القوميين العرب. وورد في اللقاءات ملاحظات تشير إلى افتقار المنظمات هوية فكرية واضحة، وإلى عدم التزامها بالمبادئ الاجتماعية التي تنادي بها بسبب طغيان الشأن السياسي على اهتماماتها (ص ٤٧ - ٥٠). واتفقت الآراء كذلك على ربط اليسار بتبني المنهج المادي الجدلي والاشتراكية العلمية، وقيم الديمقراطية والعلمانية والعدالة والمساواة. ويلحظ المؤلف أن هيمنة القضايا السياسية على اهتمامات المنظمات الأخرى، تكشف التباين في مواقف هذه المنظمات وصعوبة توحيدها، ويرى أن عليها التخلص من نهج فكري يقوم على الجبرية وصنمية النص، ومن مبدأ المركزية الديمقراطية كألية للسيطرة البيروقراطية (ص ٥٦).

لماذا تراجع اليسار؟

خصص الكاتب لهذا الموضوع فصلين في الكتاب، الأول لتشخيص العوامل الذاتية المتعلقة

ببنية اليسار وبرامجه ومواقفه، والآخر للعوامل الموضوعية المتعلقة بالتحويلات الإقليمية والدولية والفلسطينية، التي ساهمت في تراجعها. وفي مجال الكلام على العوامل الذاتية، فإن الآراء اتفقت على تحميل القيادات والبنى التنظيمية مسؤولية رئيسية، وقد وصفت القيادات بالعجز والعمل لمصالحها الذاتية، والبنى التنظيمية بالجمود وغياب الديمقراطية الداخلية (ص ٥٩ - ٧٦). وتحدثت آراء أخرى عن ضعف التكوين الفكري الذي انعكس في اهتزاز القناعات بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، وفي تراجع قيم اليسار ومفاهيمه أمام الأفكار والقيم الأصولية (ص ٧٧ - ٨٩)، كما وجهت انتقادات إلى تدني الاهتمام بالعمل الاجتماعي، وإلى العجز عن رؤية الوضع الجديد بعد اتفاق أوسلو وقيام السلطة وما أحدثته من تحولات، والذي يتطلب الجمع بين مهمات التحرر الوطني والمهمات الاجتماعية والديمقراطية (ص ٩٥ - ١١١). أما العوامل الموضوعية لتراجع اليسار فيمكن إجمالها بما يلي:

١ - التحولات الدولية، وأهمها انهيار الاتحاد السوفياتي، إذ إن اليسار فقد دافعاً سياسياً ومادياً، واهتزت القناعات بالخيار الاشتراكي وبأفكار اليسار (ص ١٢٦ - ١٣٦).

٢ - التحولات الإقليمية، وخصوصاً الثورة الإيرانية التي

أنعشت الحركات الأصولية، وطرحت إمكان مقارعة الاستعمار إسلامياً (ص ١٣٧). وكذلك حرب الخليج التي أطلقت يد أميركا في المنطقة، وأوقفت دعم دول الخليج لمنظمة التحرير، وخروج المنظمة من بيروت سنة ١٩٨٢، والتي كانت حاضنة ومرتكزاً مهماً لليسار (ص ١٣٧ - ١٣٩).

٣ - التحولات على الساحة الفلسطينية، والتي تمثلت في بروز الإسلام السياسي (حركة "حماس")، واتفاق أوسلو، والانتفاضتين. لقد أوجدت "حماس" مؤسسات لخدمة الناس، واهتمت بالطبقات الفقيرة، ومثلت المعارضة الفعلية لاتفاق أوسلو مقرونة بخط كفاحي. أما اليسار فما عاد يقدم خدمات، ولا يمارس كفاحاً، ومعارضته لأوسلو خجولة، ولا يوازن بين الاجتماعي والوطني في ظل الدور الجديد للسلطة، كما أن مواقفه أصبحت أسيرة المخصصات التي تقدمها السلطة له. وبينما لعب اليسار دوراً أساسياً في الانتفاضة الأولى، بقي في الانتفاضة الثانية على هامش الحركة الكفاحية (ص ١٤٠ - ١٦٨).

ويلاحظ المؤلف أن التأثير السلبي لكثير من العوامل التي اعتبرت موضوعية، انعكس على مجمل الحركة الوطنية الفلسطينية وليس على اليسار وحده (ص ١٨٥)، ويتفق مع الآراء التي ترى أن من أسباب تراجع اليسار، إهماله النضال الاجتماعي، وعدم إدراكه

وتطبيق برنامج كفاحي واجتماعي متميز (ص ٣٢٦، ٣٢٩). وفي المقابل، تم تحميل اليسار التزامات فكرية وسياسية يمكن أن تدخله في إشكالات هو في غنى عنها الآن، كالالتزام بالاشتراكية والعلمانية، لما لهما من مضامين إشكالية على المستويين النظري والتطبيقي، وهو ما يجعل أحزاباً يسارية لا تقوم بإدراجها ضمن مبادئها، مع تأكيد مناداتها بالعدالة الاجتماعية والمساواة، وعدم زج الدين بالسياسة.

● إن الطريقة التي يتم بها ربط مهمات التحرر الوطني بالاجتماعي، تنم عن قضيتين خطرتين: الأولى هي اعتبار السلطة الفلسطينية نظاماً لكيان سياسي قائم بالفعل، من دون التمييز بين سلطة تدير شؤون المجتمع، وأخرى مرتبطة بمصالح إسرائيل وأمنها، والثانية هي التوجه إلى مجابهة الإسلام السياسي بما يتجاوز الدفاع عن المبادئ الخاصة، أو مجابهة الممارسة الخطأ باسم الدين، إلى الدخول في سجال في شأن قضايا الدولة ونظامها، وهو ما لا يحتمله الوضع الفلسطيني الراهن (ص ٣١٣، ٣١٩).

● يلاحظ أخيراً أن البحث لم يتعرض لمجابهة المشروع الصهيوني، مع أن اليسار يدرك قبل غيره أن إسرائيل والاحتلال هما نتاج هذا المشروع.

شهادة موسى كاتب فلسطيني

■ الجمع بين المقاومة والمفاوضات، مع الدفع في اتجاه المقاومة الشعبية في إطار اتفاق وطني.

■ حل الدولتين هو الحل الواقعي والمقبول دولياً، وحل الدولة الواحدة خيار قائم.

■ السلطة حقيقة قائمة يجب تصحيحها وإعادة بنائها في إطار منظمة التحرير، كما يجب إعادة بناء المنظمة كي تتسع للجميع ككيان سياسي يمثل الشعب الفلسطيني بكل مكوناته (ص ٢٧٢ - ٢٩٨).

ويسجل المؤلف ملاحظتين جوهريتين: الأولى تقول إن على اليسار المحافظة على الرواية الوطنية في مواجهة الرواية التي تجزئ تاريخ الشعب الفلسطيني ومكوناته، وصولاً إلى اختزال قضيته باحتلال الضفة والقطاع، والثانية تتعلق بالمنظمة من حيث آلية اتخاذ القرار لضمان عدم الاستفراد به (ص ٣٠٩).

ملاحظات ختامية

● فيما يتعلق باليسار الفلسطيني وخصوصية دوره، يقول المؤلف إن المهمة الرئيسية للحركة الوطنية الفلسطينية هي، وحتى إشعار آخر، مهمة تحرر وطني (ص ٣٢٠)، وإن على اليسار أن يعمل على توجيه نضال الشعب الفلسطيني بمكوناته الثلاثة، من أجل حقوقه الوطنية، والمحافظة على روايته الوطنية. ووحدة اليسار ضرورية لتعزيز قدراته على صوغ

المستلزمات النضالية، ولا سيما أن حركة "حماس" اقتحمت المجال الاجتماعي، ونجحت في أسلمة المجتمع (ص ١٨٧). وتظهر هذه الآراء توجهاً لمواجهة فكرية مع حركة "حماس" كحزب سياسي إسلامي أصولي (ص ١٨٩ - ١٩٦).

ماذا بعد؟

بعد تشخيص حالة اليسار، ينتقل المؤلف إلى التوقعات والمقترحات بشأن أوضاعه ومستقبله، ويمكن إجمال الآراء في هذا الموضوع بما يلي:

● إجراء مراجعة نقدية شاملة لتجربة اليسار بما فيها أساليب عمله والقضايا التي أخفق فيها.

● توحيد اليسار مصلحة وطنية يقتضيها الخروج من المأزق وتصويب المسيرة الوطنية.

● طرح تصورات لإمكان التوحيد وتجاوز العقبة التي تمثلها القيادات ومصالحها الحزبية.

● طرح صيغ متعددة للتوحيد، ولأساليب الوصول إليه (ص ٢٢٤ - ٢٥٤).

● الوحدة ليست كافية للنهوض، وعلى اليسار أن يتصدر النضال من أجل القضايا الاجتماعية والقيم الديمقراطية والعلمانية (ص ٣٠٥ - ٣٠٦).

ويعرض الكتاب أيضاً، مجموعة من الآراء المتباينة في شأن قضايا وطنية تشغل الساحة الفلسطينية، مثل: